تشومسكي و النحو العربي

أ . زكرياء مخلوفي

جامعة الطارف

Résumé :

N'importe quelle langue en ces jours de mesurer la épicentre intellectuelle pour le centre de Chomsky, a toujours dit que Chomsky a révolutionné la linguistique, et publié Chomsky premier livre en 1957 et a été brève livre diminutif, et ses pensées le traitement illimité intégrée des questions scientifiques et techniques de cette science dans la mesure où Ce qui, toutefois, le livre a été une révolution dans l'étude scientifique du langage sous Chomsky parle alors emprise de maintien inégalé dans tous les aspects de la théorie grammaticale depuis de nombreuses années.

Et comme la théorie générative est multilingue placé Chomsky, avec la linguistique des scientifiques de l'Institut technologique Bmasachosat (États-Unis) entre 1960 et 1965, critiquant le modèle de forme distributive et filiaux en position Mqomathma directe étant donné que cette perception ne décrit pas peines seulement terminé déjà et ne peut pas être interprété un grand nombre de données linguistiques tels que la confusion et les parties ne sont pas liés les uns aux autres .. Mettre cette théorie pour être en mesure d'expliquer le phénomène de la créativité chez l'orateur et la capacité de créer des phrases n'ont jamais été retrouvés ou entendu que le nouveau visage.

Et comme c'est la récolte totale verbale qui s'est accumulée dans l'esprit de l'orateur dans la compétence linguistique et l'efficacité des moyens d'utiliser votre orateur accompli, dans le cas où la communication et qui est due à la capacité des mots performence

مقدمة:

لعلّه من الصعب تحديد البدايات الأولى لانتقال الفكر اللساني الغربي الحديث إلى ميدان التفكير اللغوي في العالم العربي في ضوء حوار الذات مع الآخر، وما ترتب عن هذه الحوارية الثقافية من تأثر وتلقٍ معرفي ومنهجي لمجمل مقولات النظر الغربي في دراسة الظاهرة اللغوية بصورة عامة، ولكن الذي لاشك فيه أن هذه البدايات الأولى ترجع إلى بداية الاتصال بالحضارة الغربية في العصر الحديث بدءً من عصر النهضة في بلاد الشام ومصر على وجه التحديد، ذلك أن بلدانا عربية أخرى كنت تعيش حقبة استعمارية منعت من التفكير في بناء الثقافة وإعطاء الأولوية للمقاومة في جميع الأصعدة، وربما كان من حسن حظ أخرى أن تكون السيطرة الغربية أقل قساوة وهمجية مما مكن بعض الأطراف من العناية بالفكر والثقافة ، ففي مصر –مثلا- انطلقت العناية بالفكر والثقافة والعلم في فترة مبكرة مثّلها " **رفاعة الطهطاوي** "بعد رحلته إلى أوربا ، ففي المجال اللغوي بالذات أثار المسألة اللغوية في مستوى الاهتمام بدراسة اللغات و اللغة الفرنسية على وجه الخصوص لأنها كانت تمثل لغة الفن والآداب والثقافة الرائجة في أوربا ، وربما كان التمدرس بهذه اللغة بالذات نوعا من مقاومة الشخصية المصرية للهيمنة الإنجليزية،كما ظهرت بعض أفكار الدراسة اللغوية الحديثة في مقالات نشرها في **المقتطف**،وظهرت العناية باللغة من حيث هي موضوع تاريخي قابل للدرس والنظر في كتابات "**جورجي زيدان** "الذي نشر كتابين في اللغة، هما :**الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية** (1886)،والثاني بعنوان **اللغة العربية كائن حي** محاولا فيهما عرض آراء علماء اللسان الغربيين عن طبيعة اللغة ووظيفتها وطرق تحليلها و الاستفادة من ذلك في دراسة اللغة العربية ، وكان يعتمد الترجمة من كتب المستشرقين ، الألمان منهم بخاصة ، ومما اطّرد عند اللسانيين أن الحضارة العربية لم تفرز في مجال اللسانيات سوى علما تقنيا منطلقه وغايته نظام اللغة العربية في حد ذاتها لا غير،و الواقع أنه ليس من أمة فكرت في قضايا الظاهرة اللغوية بعامة ،وما قد يحركها من نواميس مختلفة إلاّ وقد انطلقت في بلورة ذلك من النظر في لغتها النوعية، إذا فالقضية مردها إلى قدرة أي أمة على تجاوز ضبط لغتها و تقنينها لإدراك مرتبة التفكير المجرد في شأن الكلام باعتباره ظاهرة بشرية كونية تقتضي الفحص العقلاني بغية الكشف عن نواميسها الموحدة، و الحضارة العربية قد أدركت تلك المرتبة؛ ففكر أعلامها في اللغة العربية فاستنبطوا

منظومتها الكلية ،و حددوا فروع دراستها بتصنيفهم لعلوم اللغة ،وتبويب محاور كل منها، وكان من ذلك جميعا تراثهم اللغوي في النحو والصرف و الأصوات والبلاغة والعروض...، ولكنهم تطرقوا إلى التفكير في الكلام من حيث هو تمثل فردي أو جماعي للسان، ولئن ورد ذلك جزئيا في منعطفات علوم اللغة العربية بخاصة عندما فلسفوا منشأ نظامها وقواعدها ،ووضعوا علم أصول النحو، فإنهم دونوا ذلك خصوصا في جداول تراثهم الآخر غير اللغوي أساسا ، وما خلّفوه لنا في هذا المضمار يكشف لنا بجلاء أنهم ارتقوا في بحوثهم اللغوية من مستوى العبارة وهو مستوى اللغة مجسدة في أنماط من الكلام قد قبلت قبولا، إلى مستوى اللغة ، وهي في مقامهم اللغة العربية ، واللغة مفهوم يعكس الأنظمة المجردة التي تصاغ على منواله العبارة إلى مستوى الكلام أي الحدث اللساني المطلق كونه ظاهرة بشرية عامة ،على أننا في هذا السياق التوصيفي نطمح إلى الإحاطة ببعض النماذج التي أطرت علاقة المناهج اللسانية الغربية بالبحث اللساني العربي ،مما يمكننا من التطرق إلى مساهمات **الفاسي الفهري** في عنايته بالنظرية التوليدية وإمكانات الإفادة منها في إعادة توصيف نظام اللغة العربية و**تمام حسان** من خلال رؤيته التجديدية المتميزة في نظرية تضافر القرائن ، والتي تمثل في نظري أهم مشروع لساني عربي وفق نظريا وتطبيقيا في إثارة كثير من المسائل النحوية العربية بروح علمية لا تخلو دعائم برهانية قوية تجعل خطابه متماسكا في المستوى الإقناعي ، أما **رمضان عبد التواب** فقد كانت آراؤه النحوية في مجال الربط بين المناهج الشكلية الحديثة ونظرية النحو العربي صورة لذلك التلقي المنهجي للنظرية الغربية وإن آخذنا عليه بعض الأحكام التي لا تخلو من شطط واتهام للفكر النحوي العربي بالقصور ،إلا أن الصورة التجديدية المتكاملة في التنظير والمنهج والغاية يمكن تلمسها في النظرية الخليلية الحديثة التي أسس لها رائد اللسانيات الجزائرية إن صحت هذه النسبة الجغرافية **عبد الرحمن الحاج صالح وتقوم نظريته على المحاور التالية :**

1- ليس هناك لغة أفضل من لغة.

2- للغة مجرى تجري فيه حتما.

3- ليس هناك لغة رديئة و أخرى جيدة.

4- لا اعتبار للكتابة و قواعدها في اللسانيات و إنما الإعتبار للفظ.

5- اللغة أكثر من فونيمات.

6- توافق اللغة و الفكر و تفاعلهما.

7- إن الوحدة الكلامية هي التعبير التام.

8- ليس للغة كيان من دون الإنسان.

كما يمكن التنويه بجهود المدرسة الوظيفية المتأثرة بمنهج سيمون ديك والوظيفية الجديدة في أوربا والتي أسس لها في المغرب الأقصى أحمد المتوكل في ضوء جملة من المؤلفات الرائدة مثل : اللسانيات الوظيفية ، وما يلاحظ على هذا المشروع بالرغم من أهميته غموض مقولاته النظرية ،وتجزيئية التمثيل مما يجعله قاصرا عن مواجهة الحجج المنهجية والمعرفية التي تأسس عليها النحو العربي ، وربما عاد هذا القصور إلى إغفال خصوصيات اللغات والنظريات المستنبطة إزاءها ،فلا يمكن بالتالي تعميم أحكامها على جميع النظم اللسانية الأخرى ، كما تستوقفنا تجربة **سعد مصلوح** في الدراسات الأسلوبية وتحليل الخطاب باعتبار هذا المستوى البحثي امتدادا طبيعيا للدرس اللغوي في مستوى الوحدة النصية ، على أن مشروعه اللساني النصي يمكن تمثيله في نظرنا بتلك الدراسة المهمة في أجرومية الشعر الجاهلي,والتي انطلق فيها من نظريات اللسانيات الوصفية في دراسة الخطاب عند **هاريس وروبرت دي بوجراند** ، وقد اتخذت هذه الرؤية في مزجها بين النقد واللسانيات منطلقا لكثير من الدراسات التحليلية اللغوية للإبداع الشعري . هذا ولم تلق اللسانيات العربية الرواج الذي تشهده اللسانيات الغربية، فعلى الرغم من تلك الجهود الفردية القيمة المقدمة من طرف المتخصصين إلا أن هذا العلم مازال مهمشا في المؤسسات التي أوكلت لها مهمة التنمية اللسانية ،والتخطيط اللغوي قصد تلبية حاجات المتعلمين العرب وغيرهم .

لقد أثبتت اللسانيات الحديثة عددا من الحقائق صار الكثير منها اليوم من المسلمات التي لا تجادل فدخلت بذلك في حيز البديهيات، و اكتسبت أهميتها لا من أجل صحتها فحسب بل لكثرة ما تفرع عنها من مبادئ جزئية أفاد منها الباحثون في شتى الميادين مما له علاقة بظواهر

اللسان و التبليغ سواء أ كان على المستوى النظري أم التطبيقي، و أكثرها قد تفطن إليها النحاة و اللغويون العرب الأولون، و سنذكر أهمها:

1- اللسان هو قبل كل شيء أداة للتبليغ والتخاطب، فتلك هي وظيفته الأصلية وغيرها من الوظائف فرع عليها .

2- اللسان ظاهرة اجتماعية لا فردية و معنى ذلك أن اللسان غير مرتبط بالفرد كفرد بل هو مجموع من الأدلة يتواضع عليها المستعملون.

3- لكل لسان خصائص من حيث الصورة والمادة، لذلك يختلف النظام الصوتي والإفرادي و التركيبي من لغة إلى أخرى كما يختلف مضمونها المادي.

4- اللسان في حد ذاته نظام من الأدلة المتواضع عليها و له بذلك بنى و مجار ظاهرة و خفية

5- للسان منطقه الخاص به وهو مجموع الأصول و الجذور التي يخضع لها الاستعمال اللغوي السليم. و هي قوانين تجريدية لا عقلية.

6- اللسان وضع و استعمال ثم لفظ و معنى في كل من الوضع و الاستعمال، و نعني بذلك أن اللغة مجموعة منسجمة من الدوال و المدلولات ذات بنية عامة ثم بنى جزئية تندرج فيها.

7- للبنى اللغوية مستوى من التحليل غير مستوى الوضع والاستعمال والحق أن الوضع اللغوي وضعان اثنان و هما: اصطلاحي وبنوي فأما الأول فهو جعل اللفظ دليلا على المعنى قصد التواطؤ عليه بين القوم،أما الثاني فهو جعل الشيء على هيئة مخصوصة سواء أ كان دليلا على شيء آخر أم لا و يرادفه البناء والتركيب .

الأمر الذي جعل غير العرب من علماء الدنيا يعترفون بذلك ، فهذا أندري مارتيني يصرح:

(وأنا أقول إن كثيرا من البحوث العربية ساعدت بل ساهمت في بناء ما يسمى علم اللسانيات الحديث)(1) .

و قيمة موروثنا اللغوي فرضت على غير المتزمتين على من العلماء الاطلاع عليه بل و الاستفادة منه، وبهذا يعترف بعضهم بأنه درس النحو العربي واستفاد منه فهذا تشومسكي يجيب عن أسئلة مازن الوعر في لقاء أجراه معه سنة 1980 في كامبردج حيث يقول:(قبل أن أبدأ بدراسة اللسانيات العامة كنت أشتغل ببعض البحوث المتعلقة باللسانيات السامية، و ما زلت أذكر دراستي للآجرومية منذ عدة سنوات خلت أظن أكثر من ثلاثين سنة وكنت مهتما بالتراث النحوي العربي و العبري ...و لكنني لا أشعر أنني كفء للحديث عن البحوث اللسانية التي كان العرب قد أسهموا بها لبناء علم اللسان الحديث)(2).

. المدرسة التوليدية (générative) مع تشومسكي

إن أي لغوي في هذه الأيام يقيس مركزه الفكري بالنسبة لمركز تشومسكي ، يقال دائما بأن تشومسكي أحدث ثورة في علم اللغة (3)، ونشر تشومسكي كتابه الأول عام 1957 وكان كتابا ضئيل الحجم مقتضبا، وكانت أفكاره غير مقيدة بالتناول العلمي والفني لقضايا هذا العلم إلى حد ما، ومع ذلك فقد كان الكتاب ثورة في الدراسة العلمية للغة ظل تشومسكي بعدها يتحدث بسطوة منقطعة النظير في كافة نواحي النظرية النحوية لسنوات طويلة(4). والنحو التوليدي هو نظرية لسانية وضعها تشومسكي، ومعه علماء اللسانيات في المعهد التكنولوجي بماساشوسيت (الولايات المتحدة) فيما بين 1960 و1965 بانتقاد النموذج التوزيعي والنموذج البنوي في مقوماتهما الوضعية المباشرة باعتبار أن هذا التصور لا يصف إلاّ الجمل المنجزة بالفعل ولا يمكنه أن يفسر عددا كبيرا من المعطيات اللسانية مثل الالتباس والأجزاء غير المتصلة يبعضها البعض .. فوضع هذه النظرية لتكون قادرة على تفسير ظاهرة الإبداع لدى المتكلم وقدرته على إنشاء جمل لم يسبق أن وجدت أو فهمت على ذلك الوجه الجديد (5). والنحو يتمثل في مجموع المحصول اللساني الذي تراكم في ذهن المتكلم باللغة يعني الكفاءة اللسانية compétence والاستعمال الخاص الذي ينجزه المتكلم في حال من الأحوال الخاصة عند التخاطب والذي يرجع إلى القدرة performence الكلامية، والنحو يتألف من ثلاثة أجزاء أو مقومات (6)

-مقوم تركيبي ويعني نظام القواعد التي تحدد الجملة المسموح بها في تلك اللغة.
-مقوم دلالي ويتألف من نظام القواعد التي بها يتم تفسير الجملة المولدة من التراكيب النحوية
-مقوم صوتي وحرفي يعني نظام القواعد التي تنشئ كلاما مقطعا من الأصوات في جمل مولدة من التركيب النحوي.

والشبكة النحوية composante يعني البنية النحوية مكونة من قسمين كبيرين .. الأصل الذي يحدد البنيات الأصلية والتحويلات التي تمكّن من الانتقال من البنية العميقة المتولدة عن الأصل إلى البنية الظاهرة التي تتجلى في الصيغة الصوتية وتصبح جملاً منجزة بالفعل(7).وهكذا يولّد الأصل ضربين من التركيب في المثال التالي:

أولاً :الأم سمعت صوتاً .

ثانياً : الطفل يغني.

فالقسم التحويلي للنحو يمكّن من القول: الأم سمعت أن الطفل يغني .. ثم الأم سمعت الطفل يغني(8).

وليست هذه إلاّ بنية ملتبسة لا تصبح جملة فعلية منجزة إلاّ بنقلها إلى القواعد الصوتية والأصل مكون من قسمين:(9)

أ- القسم أو الأصل التفريعي وهو مجموع القواعد التي تحدد العلاقات النحوية التي هي العناصر المقومة للبنية العميقة وتمثيلها في رموز تصنيفية هكذا:
(ت س) +(ت ف)، و(ت س) هو رمز للصنف الاسمي، و(ت ف) رمز للصنف الفعلي، والعلاقة النحوية هي علاقة الفعل بالفاعل (ت = تركيب، س = اسمي، ف = فعلي.
ب- المعجم أو قاموس اللغة هو مجموع الوجوه الصرفية المعجمية المحددة في أصناف من الخصائص المميزة، فنجد أن كلمة الأم تحدد في المعجم بأنها اسم مؤنث حي إنسان . فالأصل هو الذي يحدد الرموز : (ال) أداة التعريف، (س) اسم، (ف) فعل في الحاضر .. والمعجم يستبدل كل رمز بكلمة من اللغة.

فالمثال التالي: الأم أنهت النسيج ، يتكون:

الأم (ال + أم) زمان (ز) أنهت النسيج.

قواعد تحويل هذه البنية العميقة إلى بنية ظاهرة : ال + أم انتهـ + زمان + ال + نسيج (الأم نسجت) ، وفي الوقت ذاته تخرج في قواعد صوتية : الأم أنهت النسيج.

فاستنتجنا من خلال الأصل مجموعة من المقومات النهائية (terminales) والمكونات النحوية سواء من حيث العدد أو من حيث الحال.

يضاف إليها الصيغ الصرفية وهي مهيئة لاستقبال المعاني حسب القواعد الموجودة في الصيغ الدلالية ولكي تتحقق تعرض على المنوال التحويلي.

وعمليات التحويل تقلب البنيات العميقة إلى بنيات ظاهرة دون أن تمس بالتحويل أي بالتأويل الدلالي الذي يجري في مستوى البنيات العميقة .. أما التحويلات التي كانت وراء وجود بعض المقومات فإنها تتم في مرحلتين إحداهما بالتحويل البنوي للسلسلة التركيبية لكي نعرف هل هي منسجمة مع تحويل معين ؟ والثاني باستبدال بنية هذا التركيب بالزيادة أو بالحذف أو بتغيير الموضوع أو بالإبدال، فنصل حينئذ إلى سلسلة متتالية من التحويلات تتطابق مع البنية الخارجية، وهكذا يكون حضور العامل المجهول في متتالية الأصل تؤدي إلى تغيرات تجعل من جملة: الأب يقرأ الجريدة / الجريدة قرئت من الأب، وهذه السلسلة من الكلمات المتتالية تحول إلى جملة منجزة بالفعل في المستوى الحرفي والصوتي، وهذه القواعد تحدد الكلمة المشتقة من التصرف في النسيج المعجمي وفي المقومات النحوية وتزودها ببنية صوتية .. فالتركيب الحرفي هو الذي يحول المفردة المعجمية «الطفل» إلى جملة من العلامات الصوتية:ال /طفل، وعلى النظرية التوليدية أن تعطينا قاعدة صوتية (عامة) كونية تمكن من وضع قائمة للوجوه الصوتية وقائمة للأنسجة الممكنة في هذه التراكيب باعتمادها على النسخة الأم، أي النسخة الكونية القادرة على ضبط قائمة بالخصائص الصوتية وقائمة على التراكيب الممكنة بين هذه الخصائص والأنسجة الممكنة التي تلتئم معها(10).

والخصائص الصوتية والنظرية يجب أن تمدنا بنظرية دلالية كونية قادرة على وضع قائمة بالمفاهيم الممكنة، وتتطلب إذن وجود أصل كوني يكون النسخة الأم التي تولد الخصائص

الدلالية وفي الأخير على هذه النظرية أن تقدم لنا نظرية تضبط التراكيب النحوية أعني (وضع) قائمة بالعلاقات النحوية الأصلية وقائمة بالعمليات التحويلية التي تكون قادرة على إعطاء وصف بنوي لجميع الجمل، فهذه المواضيع تكون إذن مهام عالمية على النحو التوليدي أن يضبطها في وجوه لسانية كونية في مستوياتها الثلاثة؛ الصوتية والدلالية والتركيبية.

وبعد هذا التقديم الوجيز لنظرية تشومسكي يجب علينا أن نعرض لآراء المعارضين و المؤيدين لها.

آراء المعارضين لفكرة تأثر تشومسكي بالنحو العربي

يرى المعارضون أن تشومسكي لم يتأثر بالنحو العربي في نظريته سواء أكان بطريقة مباشرة أم غير مباشرة. ومنهم: الوعر، والمتوكل، وحسان، والمزيني.

أولا : يقول مازن الوعر(11):إنه لا غرابة أن نرى عالماً لسانياً أمريكياً معاصراً هو نعوم تشومسكي يقف وقفة دهشة وعجب من التراث العربي اللغوي (النحوي والدلالي)، عندما قرأ وعلق على عملٍ لسانيٍّ كنتُ قد تقدمت به كرسالة للدكتوراه. ففي رسالة بعثها إلّي في 26 نيسان 1982 قال فيها:

"إنه من الواضح أن هذه الدراسة هي دراسة جدية ورائعة ومهمة فقد غطت منطقة واسعة من البحث اللساني وشملت أفكاراً هامة جداً . لقد دهشت بشكل خاص من تلك التعليقات اللغوية التي وردت في ثنايا هذه الدراسة والتي كان قد قالها العرب القدامى. إن هذا وحده يجعل هذه الدراسة إسهاماً قيماً جداً لتطوير الدراسات اللسانية الغربية بغض النظر عن العمل اللساني المطبق على التراكيب العربية والذي يبدو مهماً جداً").

ثانياً: ومن الباحثين الذين لا يرون صلة بين النحو العربي وتشومسكي تمام حسان. فقد عُرف هذا الأخير بدراساته عن أصول التنظير النحوي العربي في كتبه المتعددة، ولم يذكر في أي منها، فيما أعلم (نقلاً عن المزيني)، تشابهاً بين النحو العربي والنظرية التوليدية. بل إننا نجده في بحث منشور في الكتاب سالف الذكر عنوانه (إعادةوصف اللغة العربية ألسنياً ص 145-184) يستعرض المدارس النحوية العربية المعروفة، ثم يعرض تطبيقاً "لنموذج النحو التوليدي على

اللغة العربية مأخوذاً من كتاب تشومسكي Aspects de la theorie syntax وفي ختام عرضه للكيفية التي ينطبق بها النموذج التحويلي على اللغة العربية يقول: (وهكذا يبدو أن النموذج التحويلي يمكن أن يطبق على اللغة العربية، ويمكن للغة العربية أن يعاد وصفها ألسنياً من خلاله) (12).

ثالثا: يرى المزيني (13):أن القول الذي يقضي بأخذ تشومسكي عن النحويين العرب لا دليل عليه. وما يقوله تشومسكي نفسه من عدم اطلاعه على المنجزات النحوية واللغوية التي وصل إليها العلماء العرب القدماء، وهنا يعترف المزيني بفضل تشومسكي وأنه صاحب ثورة لسانية في علم اللغة الحديث.

آراء المؤيدين لفكرة تأثر تشومسكي بالنحو العربي:

أولًا :من المؤيدين لفكرة تأثر تشومسكي بالنحو العربي الدكتور نهاد الموسى(14) فهو: "يتجاوز القول بتشابه النحو العربي مع النظرية اللسانية التوليدية إلى النظر في إمكان أخذ تشومسكي عن النحو العربي. ويجب أن أشير هنا (الكلام للمزيني) إلى أن الدكتور الموسى كان في تتبعه مسار المفاهيم النحوية العربية حتى وصلت إلى تشومسكي حذراً جداً ، فقد أطَّر كلاَمه بأدق ما يكون من التحفظ. فهو يقول:(و ليس تقرير الشبه بين ابن هشام وهومبولت ثم تشومسكي من هذه الجهة محتاجاً إلى أن يـُ تكلف له التأويل) ثم يعلق في الهامش قائلا:(إن التشابه يغري بالتأمل، ويقوي معه الهاجس بأن هذه المسألة قد تكون بعض ما ورد على الغرب من العرب في إطارانتقال العلم العربي إلى الغرب اللاتيني. وذلك أن سلفستر دي ساسي كان متضلعا من علوم اللغة العربية. وما أنتجه من الدراسات في نحو العربية وما ترجمه إلى الفرنسية من كتب النحو والتجويد القديمة يدل بوضوح على أنه أدرك . إدراكا لا بأس به مفاهيم ومناهج النحاة العرب). ودي ساسي هو الذي كّون فون هومبولت وغيره. وأهم شيء اكتسبه هؤلاء من دروس دي ساسي هو اطلاعهم من خلال دراستهم للعربية واللغات السامية الأخرى على المفاهيم اللغوية والنحوية العربية التي كانت تنقصهم في ثقافتهم الفيلولوجية التقليدية، وكذلك كان الأمر بالنسبة للنحو والصوتيات. وكان دي ساسي متشبعاً بمبادئ النحو الوصفي التعليلي. وهو يمثل في زمانه ذلك المذهب الذي تناقله عدد من العلماء منذ القرن الثالث عشر عن طريق جيمس هارس

وسنكتيوس الإسباني عن النحاة العرب مباشرة أو عن لغويي السكولاستيك عن فلاسفة العرب. وتبع دي ساسي في العمل بهذه المبادئ تلميذه فون هومبولت. نقلاً عن المزيني (15) .

ثانيا: يقول أبو ديب عن البنية العميقة والسطحية لدى الجرجاني وتشومسكي - الترجمة للمزيني(16) (وربما كان نوع التحليل الذي أتى به الجرجاني في هذا الفصل أولى بل أفضل تحليل في اللغة العربية لـ"البنية السطحية (المُنجَزة)" و"البنية العميقة(الشَّجرية)"، وإيضاُح التماثل بين المفاهيم التي طورها الجرجاني، وطوَّرها تشومسكي مؤخَّراً ، سهل جداً ...ولتوضيح الفرق بين البنيتين فقد أعاد الجرجاني صياغة كل واحدة منهما بالطريقة نفسها التي يستعملها تشومسكي الآن من أجل الكشف عن البنى العميقة للتركيبات التركيبية المماثلة).

والبنية العميقة والسطحية في نحونا العربي القديم ما هي إلا ظاهرة التقدير أو التأويل للمعنى. وهنا جزء مما شرحه الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز عن التقديم والتأخير للبنية العميقة والسطحية (17)، انظر إلى المثال التالي: "ومن أبين شيء في ذلك "الاستفهام بالهمزة" فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: "أفعلت؟" فبدأت بالفعل، كان الشكُّ بالفعل نفسه، وكان غرضُك من استفهامك أن تعلم وجوده. وإذا قلت" :أأنت فعلت؟" فبدأت بالاسم، كان الشكُّ في الفاعل َمْن هو، وكان التردُّد فيه. ومثال ذلك أنك تقول: "أبنيت الدار؟" تبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشكَّ فيه، لأنك في جميع ذلك متردِّد في وجود الفعل وانتفائه، ُمجَوِّز أن يكون قد كان، وأن يكون لم يكن. وتقول: "أأنت بنيت هذه الدار؟"، فتبدأ في ذلك كله بالاسم، ذاك لأنك لم تشكَّ في الفعل أنه كان. كيف؟ وقد أشرت إلى الدار مبنية، وإنما شككت في الفاعل من هو؟ ومما يـُعْلَم به ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم أنك تقول: " أقلت شعراً قطّ؟"فيكون كلاماً مستقيماً . ولو قلت: "أأنت قلت شعراً قط؟"، وذاك أنه لا معنى للسؤال عن الفاعل َمْن هو في مثل هذا، لأن ذلك إنما يـُتصوَّر إذا كانت الإشارة إلى فعل مخصوص نحو أن تقول: " من قال هذا الشعر؟"وما أشبه ذلك مما يمكن أن ينـُصَّ فيه على معيَّن.

فهذا تحليل لغوي يعتمد على المنطق والأسلوب الفلسفي الفكري الذي تأثر به تشومسكي في تحليله للجملة الإنكليزية كما يذكر في كتابه "Cartesian Linguistics" علم اللغة الديكارتي

المنطقي.

ولتوضيح معنى البنية العميقة والسطحية بشكل مبسط يمكن أن نورد المثال التالي: عندما نقول مثلاً : زيد جاء؛ فالفاعل الحقيقي هنا مستتر. فهو بنية عميقة أي أن الفاعل مقدر وباطني. وعندما نقول :جاء زيد؛ فهنا زيد فاعل حقيقي. فهو بنية سطحية ظاهرة، أي أن الفاعل ظاهر . فهنا حاول تشومسكي أن يبرهن للإنجليز مثلاً : أن زيداً جاء الفاعل هنا مقدر وبينما جاء زيد فالفاعل هنا حقيقي. وهذا ما يسميه بالبنية العميقة والسطحية في النحو الإنكليزي (18).

مناقشة الرأي المعارض:

إن المعارضين يجزمون قطعا بعدم تأثر تشومسكي بالنحاة العرب السابقين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. والدليل هو ما ذكروه من رسائلهم له وقناعاتهم الخاصة في هذا الميدان. وبالإضافة إلى ذلك، يذكر المزيني (19)أن التراث العربي ذ ُسِي تماماً فهو يقول: "وأما النتيجة المبدئية التي آل إليها نسيان تراث العرب في اللغويات العامة فهي حصول قطع في تسلسل التفكير الألسني عبر الحضارات الإنسانية فنهضت الحضارة الغربية على حصيلة التراث اليوناني ولكن في معزل عن مستخلصات ثمانية قرون من مخاض التفكير اللغوي عند العرب، وإذا جاز لنا أن نبسط القول مصادرة في البحث أمكننا أن نقرر افتراضاً أن أهل الغرب لو انتبهوا إلى نظرية العرب في اللغويات العامة عند نقلهم لعلومهم في فجر النهضة لكانت الألسنية المعاصرة على غير ما هي عليه اليوم، بل لعلها كانت تكون قد أدركت ما قد لا تدركه إلا بعد أمد. وما دام أن الدراسات اللغوية العربية لم تنتقل إلى الغرب، فهي بالتالي لم تصل إلى تشومسكي بالطريقة التي تفترض دائماً.

فالمزيني كغيره من الأوربيين يتعصبون لكل ما هو غربي، والأمر الآخر هو أنهم يجهلون التراث العربي القديم ولم يستقرئوه جيداً . وللتدليل على جهلهم بالتراث ما يذكره الوعر(20) عن أستاذه ولتركوك (Walter Cook) العالم اللساني الأمريكي المشهور، عندما علق على رسالته للدكتوراه جاء فيه :(إننا لا نعرف بأن العرب النحويين القدامى قد توصلوا إلى ما ذكرته في رسالتك لذلك ينبغي أن نترجم أكثر أعمالهم من العربية إلى الإنجليزية). فهذا يدل على جهلهم بالتراث العربي وتعصبهم الأعمى لكل ما هو غربي. وهنا يحضرني في هذا المقام قول للإمام الغزالي رحمه الله, يكفر فيه بعض العلماء العرب المعجبين بالغرب في كتابه تهافت الفلاسفة

الذين يتفاخرون بذكر الأسماء الأعجمية ونقلهم عنهم؛ فهو يقول:" فإني قد رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد من الفطنة والذكاء... والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب... وإنما مصدر كفرهم سماعهم أسماء هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس وأمثالهم..." (21).

والرأي السديد الذي لا لبس فيه ولا مراء، هو أن الدراسات اللغوية العربية القديمة انتقلت إلى الغرب عن طريق ترجمة الأعمال اللغوية العربية إلى العبرية واللغات الأوربية في العصر الأندلسي(22). وأن تشومسكي تأثر - بطريقة غير مباشرة - بالنحاة العرب السابقين. فالمزيني يناقض نفسه بنفسه فهو يذكر أن المستعرب سلفستر دي ساسي كان متضلعاً بالعربية؛ وأن ما ترجمه من الكتب العربية إلى الفرنسية من كتب النحو والتجويد القديمة يدل بوضوح على أنه أدرك إدراكاً لا بأس به مفاهيم ومناهج النحاة العرب. ودي ساسي هو الذي كون فون هومبولت وغيره. وأن تشومسكي تأثر بفون همبولت في علم اللغة؛ وبالمدرسة الفرنسية (Royal-Port) في القرن السابع عشر كما يعترف بنفسه. فسلسلة السند التي تدل على أخذ تشومسكي عن العرب: هو أن جامعة باريس في القرن الرابع عشر كانت تدرس اللغة العربية رسمياً فيها(23).

الدلائل التي تدل على تأثر تشومسكي بالنحو العربي:

أولاً : اللغة العبرية وتأثيرها في نحو تشومسكي:

إن النحو العبري تأثر بالنحو العربي تأثراً كبيراً في العصر الأندلسي، وصيغت قواعده على هيئة النحو العربي (24)، وكذلك اعتماد اللغة العربية لغة التدريس في أوربا في القرن الرابع عشر الميلادي وخاصة فرنسا.

وإن اهتمام تشومسكي باللغة العبرية وكتابة رسالته للماجستير عن الصيغ الصرفية في العبرية 1951م؛ لهو دليل قوي على معرفته وضلوعه بالعبرية والتي تأثرت بالعربية أيما تأثير في الأندلس.

وعلاوة على ذلك، يقول العمري: (25) إن اللغة العبرية لغة سامية... ومازالت هناك صلة بينها وبين اللغة العربية، وقد وجد علماء اللغات المستشرقون أن حوالي 15% بالمئة من مفردات اللغة العبرية، يتطابق مع اللغة العربية في اللفظ والمعنى...

وأما عن التشابه بين اللغة العبرية والعربية فيقول: نظرا لحقيقة كون اللغة العبرية لغة سامية فإنها تشترك مع اللغات السامية في كثير من المميزات، ومن أهم هذه المميزات مايلي:

1-تشابهها بالعربية في تكوين الاسم من حيث عدده ونوعه، وفي تكوين الفعل من حيث زمنه وتجرده وزيادته وصحته وعلته.

2- تغيير معنى الكلمات بتغير حركاتها.

3- التشابه في صياغة الجمل وتركيبها.

ويقول راشد: (26) لقد تميزت الحركة اللغوية والأدبية داخل المجتمع الإسلامي بنشاط متعدد الاتجاهات، حيث بحث المسلمون في القرآن لفظاً ومعنى وقراءة وتجويداً فظهر علم التجويد، ولمعرفة البناء الأصلي للألفاظ ظهر علم الصرف، وكذلك ظهرت علوم البلاغة وعلم المعاني وعلم البيان وعلم البديع. إلى هذا الوقت كان اليهود لا يبحثون في مثل هذه الأشياء. وكانوا تلقينيين في دراستهم للتوراة، يأخذون تفسيرها وتلاوتها بالتلمذة جيلاً بعد جيل. وهنا فتنوا بمناهج المسلمين، فظهرت لأول مرة في تاريخهم مؤلفات في النحو والصرف .فمن نحاة اليهود الذين ترسَّموا خُطى العرب في دراسة اللغة "سعديا سعيد بن يوسف الفيومي المتوفى سنة 945م الذي كتب في اللغة كتاباً كبيراً هـ و كتاب اللغة، ومع أنه قُقِد فقد ورد في الأخبار أنه كان يتناول فيه اللغة العبرية وقواعدها مقتفياً أثر اللغويين العرب في تأليفهم في النحو العربي لدرجة أنه هو ومعظم من جاءوا بعده ألفوا كتبهم هذه باللغة العربية.

يأتي بعده من نحاة اليهود في غضون القرن العاشر الميلادي شيخ نحاة اليهود أبو الوليد مروان ابن جناح القرطبي في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، والذي كرّس وقته لدراسة الظواهر اللغوية العبرية ولعل أهم أعماله " كتاب اللَمع" الذي كتبه بالعربية في النحو.

و تنقسم الجملة العبرية إلى جملة بسيطة (وهي الجملة النواة) وجملة غير بسيطة (وهي الجملة المركبة) تحتوي على جملة فرعية داخلها. فالجملة البسيطة تتكون من مبتدإ أو خبر أو فاعل وفعل ومفعول به وتتوسع بإقحام جملة الصلة بين جزأي الجملة الأصلية مع وصف الخبر.

والجملة الاسمية: تتكون من مبتدإ وخبر دون الحاجة إلى فعل يربطهما. والجملة الفعلية: ويعبر بالفعل وحده بوصفه جملة مفيدة يحسن السكوت عليها، موجود في جميع اللغات إذا فهم الفاعل المصاحب للفعل والكامن فيه على شكل ضمير مستتر، ففي اللغة العربية أستطيع أن أقول :(قف). وتكون جملة مفيدة، لأن فاعل هذا الفعل متضمن في الفعل نفسه وتقديره أنت. وأحصل على نفس النتيجة إذا قلت بالإنجليزية stop ، كما أحصل عليها في العبرية كذلك. فالجملة العبرية تسير إذن على النحو التالي:

أ- الجملة الفعلية تتكون من الفاعل ثم الفعل ثم المفعول به.

ب- الجملة الاسمية تتكون من مبتدإ وخبر.

وقد يأتي الفعل قبل الفاعل إذا كانت الجملة مبدوءة بظرف أو حال أو بجملة تأكيد، كما أن العبرية الحديثة لا تتقيد بهذه القاعدة في بعض الأحيان.

فيجب علينا ألا نغفل دور اللغة العبرية وتأثرها بالنحو العربي ومعرفة تشومسكي لها معرفة تامة؛ فهي الواسطة بين العربية واللغات الأوربية وخاصة الإنجليزية لتأثر تشومسكي بها.

ثانياً: نظرية النظم عند الجرجاني

إن نظرية النظم تعتمد الأسلوب اللغوي الفلسفي المنطقي في تفسير الكلام وشرحه؛ وهذا ما تأثر به تشومسكي في تحليله للجملة الإنجليزية. وطريقة التحليل التي اتبعها الجرجاني هي التي اعتمدها تشومسكي .

ومن الدلائل الأخرى التي تبرهن على تأثر تشومسكي بالنحو العربي بطريقة غير مباشرة ما يقوله الظهار(27): إن الشيخ عبدالقاهر الجرجاني نحا بمنهجه التحليلي منحًى جديداً ، فبين أثر النفس والتأمل الباطني في دراسة الأثر الأدبي.

وما يقوله لاشين (28)عن نظرية الجرجاني: (... إن التركيب النحوي له معنى أول يدل على ظاهر الوضع اللغوي، وله معنى ثانٍ ودلالة إضافية تتبع المعنى الأول، وهذا المعنى الثاني، وتلك الدلالة الإضافية، هي المقصد والهدف في البلاغة... وأوضح أن التراكيب النحوية الصحيحة، والأساليب اللغوية السليمة، يستتبعهما حتماً معان ثانية ودلالات إضافية، هي التي يبحث عنها علماء البلاغة) وكذلك ما يقوله وليد مراد عن نظرية النظم: (لقد ربط عبد القاهر بين نظرية النظم، وبين إعجاز القرآن، واللفظ والمعنى مع التصوير الفني، ومع الفصاحة والبلاغة، ربطاً متيناً لإبراز العلاقة القائمة بين اللغة والفكر، وهدفه من ذلك خدمة القرآن الكريم وإظهار إعجازه، من أجل هذا الهدف، انطلق إلى الغرض اللغوي والنقدي في تحليل النصوص مع المقارنة والموازنة).

الخلاصة:

و خلاصة القول إن النحو التحويلي يعيد صياغة أو بناء الجملة من بنيتها السطحية إلى بنيتها العميقة أو تركيبها الأساسي , أما في الدرس النحوي التقليدي فهناك التعريفات النظرية وهناك التفصيلات عن كل قاعدة وإحصاء لحالاتها المتعددة , وهذا ما لا نجده في النحو التحويلي .

و أنه من بين معوقات النهضة العلمية اللغوية في الثقافة العربية المعاصرة هو شيوع بعض المقولات التي لا تستند إلى حقائق. وذلك مثل أن النظريات اللسانية المعاصرة لا يصلح تطبيقها على اللغة العربية لأن هذه النظريات أقيمت على لغات غريبة، وأن قصد الدراسة اللسانية المعاصرة فيما يخص اللغة العربية تقعيد اللهجات وإحلالها محل اللغة الفصحى، أو أن الدراسة اللسانية المعاصرة تريد أن تكون بديلاً للنحو العربي بعد إزاحته من مركز الصدارة في الدراسة العربية.

لذلك لا يسع المتخصص في النحو العربي في هذا العصر أن يتجاهل التقدم الذي ينجز في اللسانيات، كما أنه لا غنى له عن الاطلاع على ما يكتب باللغات الأخرى عن الدراسات العربية. وبدلاً من القطيعة بينه وبين المتخصصين في هذه المجالات ينبغي عليه أن يسعى إلى الاطلاع على ذلك والاستفادة منه والحوار معه.

قائمة المراجع:

1- مازن الوعر : دراسات لسانية تطبيقية،طلاس للدراسات والترجمة،دمشق سوريا،1989، ص285.

2- النظريات النحوية والدلالية في اللسانيات التحويلية و التوليدية، محاولة لسبرها و تطبيقها على النحو العربي،مجلة اللسانيات،يصدرها معهد العلوم اللسانية والصوتية،الجزائر،العدد السادس2،1982،ص72.

3- جيفري سامبُسون:المدارس اللغوية؛ التطور والصراغ، ترجمة أحمد نعيم الكراعين، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،1993، ص134.

4- جون ليونز:نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمة وتعليق حلمي خليل، ط1 ،دار المعرفة الجامعّية، الإسكندرية،1985، ص29.

5- محمد الصغير بناني:المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، دار الحكمة، الجزائر ،ص76.

6- المرجع نفسه ، ص76.

7- المرجع نفسه،ص77.

8- المرجع نفسه ،ص78.

9- محمد الصغير بناني، المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة، ص79.

10 -المرجع نفسه ،ص80.

11 - الوعر، مازن قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث مدخل، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - الطبعة الأولى، 1988، ص ص359-361.

12- المزيني، حمزة بن قبلان:تشومسكي في عيد ميلاده السبعين، صحيفة الرياض السعودية، الخميس 1420/10/27هـ.

13- المرجع نفسه ، ص4.

14 - الموسى، نهاد:نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر النحوي الحديث المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،بيروت، 1980.ص54-55.

15- المزيني، حمزة بن قبلان :تشومسكي في عيد ميلاده السبعين، المرجع السابق. ص2.

16- المرجع نفسه، ص1.

17- الجرجاني، عبد القاهر :دلائل الإعجاز- قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر- القاهرة- مكتبة الخانجي، 1984،ص111.

18 - مازن الوعر :قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث مدخل المرجع السابق .ص126.

19- المزيني، حمزة بن قبلان: تشومسكي في عيد ميلاده السبعين، المرجع السابق. ص3.

20- مازن الوعر :قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث مدخل، ص360.

21- الغزالي أبو حامد الطوسي :تهافت الفلاسفة ،صححه وعلق عليه وقدم له : سليمان دنيا، طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة،1974،ص ص31-32.

22- كمال، ربحي :دروس اللغة العبرية: - بيروت- عالم الكتب، 1982،ص4.

23- Robins, R, H, op.cit. 1984. p 75,96-99.

24 - المرجع نفسه ،ص4.

25- كمال العمري: دروس اللغة العبرية الحديثة، ص ص 4-6.

26- راشد سيد فرج:اللغة العبرية قواعد ونصوص،دارالمريخ للنشر ،الرياض،1993،ص ص17-18.

27- الظهار، نجاح أحمد عبد الكريم:أثراستخدام نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني في تنمية التذوق البلاغي لدى طالبات اللغة العربية ،الناشر العبيكان- جامعة طيبة- كلية التربية والعلوم الإنسانية، مركز البحوث التربوية، ط1،الرياض،2006، ص44.

28- لاشين، عبد الفتاح:التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر،المملكة العربية السعودية،1980، ص53.